الخارجون على الدولة

يتحدث الإسلام عن نوعين يخرجون على الدولة:

١ - قطاع الطريق.

٢- البغاة.

والقدر المشترك بينهما هو عدم إطاعة الدولة، ثم يختلفون هل هم كثرة أم قلة؟ وهل لهم عقائد وأفكار أم لا؟

البغاة: من هم؟ وما حكمهم؟

يقول تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحجرات: ٩).

أما السنة فتتحدث عن وجوب اعتزال (الفتنة) وعدم المشاركة فيها، ويلاحظ أن البعض من كبار الصحابة اعتبر الحرب بين الإمام علي ومعاوية من الفتنة؛ لذا ابتعدوا عنها ولم يشاركوا فيها، وقد استعرض الفقيه (ابن قدامة) الخارجين على الحكومة، وصنفهم إلى[1]:

١- قوم امتنعوا، وخرجوا عن الطاعة، لكن من غير تأويل، أي من دون أفكار وعقائد متميزة، فهؤلاء (قطاع طرق).

(١) المغني ٨/١٠٧.

٢ - قـوم لهم تأويل، لكنهم قلة قليلة، فهؤلاء (قطاع طرق) لدى جمهور الحنابلـة والشافعي، لكن بعض الحنابلة جعلهم من (البغاة)؛ لأنه لا ينظر لقلة العدد وكثرته.

٣ -الخـوارج الذين يكفـرون بالذنـوب، والذين قاتلهـم الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجمهور الفقهاء يرى (استتابتهم) فإن تابوا وإلا قتلـوا، لكن جماعة مـن أهل الحديـث (تكفرهم). وعندما سئل الإمام علي عنهم: أكفار هم؟ أجاب: من الكفر هربوا.

٤ - قوم من أهل الحق يخرجون عن قبضة الإمام، ويعملون على خلعـه، ولديهم تأويـل سائغ، وفيهم قوة، بحيـث يحتاج إلى جيشـ لردهم، فهـؤلاء هم (البغاة) ومـا سيطروا عليه من أرض، صار دار (بغي).

تعريف البغاة

لعل أفضل تعريف للبغاة ما ذكره ابن قدامة بقوله[1]:

قـوم من أهل الحـق، يخرجون عن قبضـة الإمام، ويعملون علـى خلعـه، ولهم تأويـل سائغ، وفيهـم قوة، بحيـث يحتاج إلى جيش لردهم، فهؤلاء (البغاة) وما سيطروا عليه من إقليم (دار بغي)... ا.هـ.

---

(١) المغني ١٠٧/٨.

فالبغاة (ثوار) لهم قوة ولهم أفكار ومبررات معقولة، وهم مسلمون في الأصل إلا إذا تبنوا أفكارًا تخرجهم من الإسلام، ويلاحظ أن (الثورة) تبدأ بشكل ثم تتطور وتتبدل وتعدل في الأهداف والمعتقدات، لكن الخروج بنفسه لا يكفر؛ لأن الله تعالى وصف المتقاتلين بالإيمان: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ...﴾ فإعلان الثورة قد يصاحبه ويواكبه معتقد يكفر صاحبه وقد لا يكون ذلك...

شروط قتال البغاة

لأن حكم البغاة الإسلام، ولهم مستند معقول في ثورتهم؛ لذا اتجه الفقهاء لوضع شروط هدفها دفعهم وإلحاق الهزيمة بهم فقط، وليس قتلهم والتخلص منهم، ومن هذه الشروط[1]:

١ - عدم الحكم عليهم بالكفر لمجرد الخروج.

٢ - لا تستعمل ضدهم أسلحة (دمار شامل) - بلغة اليوم - فلا يقتل إلا من يقاتل.

٣ - يكتفى بإلحاق الهزيمة بهم.

٤ - لا يقتل جريحهم ولا أسيرهم، ولا تغنم أموالهم ولا تسبى ذريتهم.

٥ - ما أتلفوه خلال الحرب والقتال لا يغرموه.

---

(١) المغني لابن قدامة ٨/ ١١٠.

يقول ابن قدامة[1]: إذا ترك (أهل البغي القتال، إما بالرجوع إلى الطاعة وإما بإلقاء السلاح، وإما بالهزيمة إلى فئة أو إلى غير فئة، وإما بالعجز لجراح أو مرض أو أسر، فإنه (يحرم قتلهم) واتباع مدبرهم، وبهذا قال الشافعي، وقال أبو حنيفة: إذا هزموا إلى فئة لهم كقولنا، وإن كانت لهم فئة يلجؤون إليها، جاز قتل مدبرهم وأسيرهم والإجهاز على جريحهم، وإن لم يكن لهم فئة لم يقتلوا... ا.هـ.

٦ - أما المقتول منهم فيغسل ويكفن ويصلى عليه، كما فعل الإمام علي رضي الله عنه بالخوارج.

٧ - أما إن ارتكبوا ما يوجب (الحد) ثم قُدِرَ عليهم، أقيم عليهم، ولا يسقط باختلاف (الدار)، وهذا قول الشافعي ومالك وابن المنذر... ويرى أبو حنيفة: إذا امتنعوا بدار - أي خاصة بهم - لم يجب (الحد) على أحد منهم؛ لأنهم خارجون عن (دار الإمام) فأشبهوا من كان في (دار الحرب).

ومعلوم أن الأحناف يعدون الإسلام واجب التطبيق في دار الإسلام، وأما خارج هذه الدار فلا سلطة للمسلمين، وهذا هو رأي القوانين الوضعية، فالدولة تطبق نظمها وقوانينها داخل حدودها وفي سفاراتها وقنصلياتها فقط.

---

(١) المرجع السابق ٨/١١٤.

حضور القتال دون الاشتراك

درس الفقهاء إمكانية أن يحضر القتال أشخاص، لكن لا يشاركون فيه، مع قدرتهم عليه، فهؤلاء لم يجز أن يقصدوا بالقتل؛ لأن القصد من قتال البغاة كفهم، وهؤلاء كفوا أنفسهم، فلا حاجة لقتلهم، ويستشهد الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ (النساء: ٩٣).

فدل القرآن الكريم على تحريم (قتل المؤمن عمدًا) على وجه العموم، وإنما خص من ذلك ما حصل ضرورة مثل (دفع الباغي والصائل) والصائل هو المهاجم، وفيما سواهما يبقى على عموم المنع، فمن لا يقاتل مع قدرته ولا يخاف منه القتال - بعد ذلك - وهو مسلم لا يحتاج (لدفع) فلا يحل دمه[1]... ا.هـ.

ولعل الإشكال الأكبر اليوم في نوع السلاح المستعمل من طيران وصواريخ وأمثالها، فهي برغم (الدقة) تقتل غير المقاتل، بينما المقاتل يكون في حماية، كذلك الاستعمال المفرط للسلاح مع وجود حاجة وعدمها، ومع وجود تهديد أو عدمه، فكم في عالم اليوم من يعتقد أن أمريكا كانت مهددة من قبل السودان أو العراق أو أفغانستان حين شنت الحرب على هذه البلاد وما زالت؟!

(١) المغني لابن قدامة ١٠٩/٨.

الحرابة (قطع الطريق)

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (المائدة: ٣٣).

الحرابة: البروز لأخذ المال أو القتل أو الإرعاب على سبيل المجاهرة مكابرة، اعتمادًا على القوة مع البعد عن الغوث... [١]

واعتبر المالكية (محاربًا) من يحاول الاعتداء على العرض مغالبة، ويتفق الفقهاء على اعتبار الحرابة من الحدود الشرعية.

وفي السنة المطهرة قال ﷺ[٢]: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**».

من المحارب؟ وما شروطه؟

هو المسلم بشروط معينة مثل[٣]:

١ - الالتزام: أي بأحكام الشريعة، فإن كان محاربًا أو معاهدًا أو مستأمنًا فلا.

(١) بدائع الصنائع ٧/ ٩٠، والمغني لابن قدامة ٨/ ٨٧، وروضة الطالب ٤/ ١٥٤.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٧٤) (فتح الباري ١٣/ ٢٣) كما أخرجه مسلم (رقم ٩٨) ١/ ٩٨.
(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧/ ١٥٥.

٢ - التكليف: أن يكون عاقلًا بالغًا.

٣ - الذكورة عند الأحناف، ولا تشترط لدى الحنابلة والشافعية والمالكية.

٤ - وجود السلاح: قال بذلك الأحناف والحنابلة، ولم يشترط المالكية والشافعية حمل السلاح، إذ يكفي القهر والغلبة وأخذ المال.

٥ - البعد عن العمران: وذهب المالكية والشافعية وأبو يوسف من الأحناف وكثير من أصحاب أحمد إلى عدم اشتراط البعد عن العمران.

٦ - المجاهرة: ذلك لأن أخذ المال إن حصل سرًا فهو سرقة، وإن اختطفوا المال وهربوا فهم (منتهبون).

الجديد (الخطف وطلب الفدية)

ظهر أخيرًا الخطف للشخص أو أطفاله، ثم لا يطلق حتى يدفع (فدية)، ومن إبداعات الخاطفين أخذ المال، وقتل الرهينة، فهل هم من أهل الحرابة؟!

الذي أتصوره أن الخطف بأنواعه حرابة من نوع جديد؛ لأنها تخيف الناس وتعتدي بالقتل والتعذيب وطلب الفدية، وكلها تدخل في الحرابة وزيادة، ويمكن أن يزاد في العقوبة بفرض غرامة مالية كبيرة تجعل الإنسان الذي يخطف يحسب للعقوبة حسابًا كبيرًا.

ومن الجرائم الجديدة (التهجير)، فالإنسان ينفق عشرات السنين كي يتمكن من بناء سكن أو شرائه، فيأتيه مجرم لا يخاف الله فيأمره بمغادرة بيته، يخرج بملابسه ويهدد بالقتل إن اقترب من البيت الذي هو كل ما يملك في هذه الدنيا.

أعرف شخصًا كدح واشتغل عشرات السنين، ووضع كل ما لديه في بيت، ثم جاءه مجرم ليخرجه من البيت مع التهديد بالقتل، وبعد أيام معدودة فقد المسكين نظره.

ألا يعد مثل هذا العمل قمة في (الإرهاب) وأكبر من قطع الطريق، فقطع الطريق يمكن أن ينتهي بخوف ساعة أو ساعات وأخذ قليل من المال، وقد يكون ثمة قتل أو لا يكون، أما الخطف وما يصاحبه والتهديد بالقتل وحال الأهل والأقارب، ثم تدفع الفدية ويقتل المسكين فهل هناك جناية أكبر من هذه الجناية.

الأكبر من كل هذا!

الأكبر من كل ما تقدم أن تقوم شرطة أو جيش بملابسهم الرسمية، وبسيارات الدولة وسلاحها فيهاجمون بيتًا ويسلبون كل ما فيه من مال، وقد يعتقلون الرجال ثم يطلبون (رشوة) لإطلاقهم، إنه أكبر امتحان لإنسان أعزل لا يمكنه حتى الكلام مخافة القتل والتعذيب، ويصل به الخوف أن يتجنب الشكوى

مخافة ما يمكن أن يلحقه من جراء ذلك، ألهذا وجدت الحكومة والشرطة والجيش؟!

وراع الشـــاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا كان الرعاة هم الذئاب؟

اللهم يا كريم لا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا، ولا تؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا يا أرحم الراحمين.

عقوبة المحارب

أشـارت الآيـة لأكثر من عقوبـة: القتل أو الصلـب أو قطع الأيـدي والأرجـل والنفـي، فهل هنـاك تخيـير أم لـكل فعل ما يناسبه[1]؟

١ - الشافعيـة والحنابلة ومحمـد وأبو يوسف من الأحناف يرون أن (أو) في الآية تفيد ترتيب العقوبة على حسب الجناية.

فمن مارس القتل وأخذ المال يقتـل ويصلب، ومن أخذ المـال فقط قطعت يـده اليمنى ورجله اليسـرى، فإن أخاف الناس، لكنه لم يقتل ولم يسلب المال، فعقوبته النفي.

أبو حنيفـة يرى أن الإمام مخير في ثلاثـة أمور: القطع ثم القتل أو القتل فقط أو الصلب؛ لأن الجناية جمعت القتل وأخذ المال، فالقتل وحـده يستوجب القتل، وأخذ المال وحده يستوجب القطع، ففيهما مع الإخافة لا يعقل القطع وحده.

(١) الموسوعة الفقهية ١٥٨/١٧.

ويـرى جماعة من العلماء أن الآية تدل على التخيير بين الجزاءات الأربعة: فمن قطع الطريق وقدر عليه الإمام خير في أي عقوبـة يرى المصلحة فيهـا، وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا مالًا، فكأن العقوبة تكون (للإخافة).

٢- هنـاك تفصيل: إن قتـل القاطع فلا بد من قتلـه، إلا إذا رأى الإمـام مصلحة في بقائه أعظم من قتله، لكن ليس له تخيير في قطعـه ولا نفيه بل قتله أو صلبه فقـط، وإن أخذ المال ولم يقتـل لا تخيـير في نفيه بـل في قتلـه أو صلبـه أو قطعه، فإن أخاف فقط فالإمام مخير بين قتله أو صلبه أو قطعه - حسب المصلحة - فإذا افترضنا أن العدالة تتطلب أن تكون العقوبة على قدر الجناية فالتفصيل الأول هو الأنسب بإذن الله.

في سقوط الحرابة

قال تعالى في ختـام آية الحرابة: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة: ٣٤).

توبـة الجاني قد تكون قبل تمكن الدولة منه، وقد تكون بعد القبض عليه، في الحالـة الأولى فالتوبة مقبولـة، أما في الحالة الثانيـة فلا قيمة لها، فهي كمن يمارس الزنا ثم أصيب بمرض فصـار عاجزًا عن ذلـك، وعندها تاب، فتوبتـه لا قيمة لها على الأقل حسب الظاهر والله يتولى السرائر..

ونظـرًا لأن الحرابـة تحتوي على حقـوق لله تعالى وأخرى للبشر، فحقوق الله تسقط بالتوبة، أما حقوق العباد فلا تسقطها التوبـة، وهذا بشكل عام، والحرابـة كذلك، فمن أخذ مالًا فعليه رده (عنـد الجمهور)، وقد فصل الأحنـاف فقالوا: إن كان المال موجودًا وقائمًا فلا يسقط إلا بعفو مستحق..

وحديـث (الدواويـن) ثلاثـة يوضـح ذلك أفضـل توضيح، فقضية الشـرك محسومـة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾.. ومـن أضاع فرضًـا من صلاة، أو فاته صيام يـوم فالله تعالى يعفو عنه أو يعاقبـه، ومن أخذ مالًا لأخيه فعليه أن يرده أو يسامحه في الدنيا، والتوبة لا تسقط حقوق العباد.

تفنن البشر

إن البشـر يتفـنن في طعامه وشرابـه ولباسـه وبيته، ومن التفـنن القاتل هـذا النوع من الجريمة المنظمـة، ومن المنظمات الإرهابيـة، ومـن تجار المخـدرات، ومهربي السـلاح وغيرها ما يستجـد يوميًـا، ومن المهـام الأولى والكـبرى نشـر الأمن ودفع الظلـم ومنع الأذى بـكل أصنافه، لكن الجديـد القاتل أن تأخذ الحكومة على مسئوليتها نشر التعذيب والعدوان على الفرد الذي لا يستطيـع مصارعة قوى الدولة، على حين تتهرب الحكومة من واجباتهـا فتقف عاجـزة عن الجماعات المجرمـة التي تعيث في

الأرض فسادًا، تنشر الموت والرعب، والحكومة لا تحرك ساكنًا؛ لأنها غير مستهدفة بذلك، أو لا تريد فتح معركة مع مجرمين عتاة، لا يعرف أحد نتيجتها ولا موعد الانتهاء منها.

الإنسان والتاريخ

الإنسان مخلوق ثقافي، وذاكرته (التاريخ) وله به عشق وغرام، يتأثر به وبأساطيره أكبر تأثر وأعظمه، وقد وجدتُ (بول فاليري) في كتابه: (نظرات إلى عالم اليوم) يسجل هذا الغرام بالتاريخ بأجلى صوره، فهو الذي يصوغ أحلام الشعوب، بل يغذيها بذكريات مزيفة، وهو أخطر (كيمياء) يفرزها الفكر البشري، وهو يصوغ الأحلام، ويسكر الشعوب ويغذيها بذكريات سليمة ومزيفة، ويبالغ في أهميتها ويرفدها بما (يقض مضاجعها)، يقودها إلى (هلوسة العظمة) أو جنون الاضطهاد، وهو قادر على أن يحيل الأمور إلى (مرارة أوعجرفة أو غطرسة) أو يدفع نحو جنون الاضطهاد، فالتاريخ يبرر ما نريد، إنه يحتوي على كل شيء[1]... ا.هـ.

ومن يستذكر ما تعتقده إسرائيل وما تنشره في العالم لا يصعب عليه أن يصدق بأن التاريخ كيمياء تحوي كل شيء.

---

(١) أمريكا طليعة الانحطاط د. رجاء جارودي ص (١٨٠) الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

أمـا من يتحفـظ على ذلـك أو يرفضـه فيمكـن أن يحال علـى أمثال نيرون ونابليـون وهتلر وستالين وبـن غوريون، وعلى تلاميذهم وعشاقهم من مات قريبًا، ومن لا يزال ينتظر.

التاريخ مسعر الحـروب ومشعل الفتن، وله سحر لا يقاوم، وفي حقائقه وأساطيره ما يشبه المعجزات.

أمـا القـديم الجديد فهـو استخـدام (التاريـخ) لأهداف سياسيـة، ويذكـر د. جـارودي مثـالًا[1]: فلأجل تبريـر (سباق التسلـح) أو السيطـرة بأنواعهـا يصطنـع تاريخًـا (للأعـداء والخصـوم) فهـم شياطـين، ففـي وقـت قريـب كان (الاتحاد السوفيتي) يمثـل (إمبراطورية الشر) فلما ذهب وسقط وانحل صار (الإسلام) بديلًا له، لتبرير سياسة محددة، في وقت مضى ظهـر (تاريخ مقدس) كان في البداية (تاريـخ العبرانيين)، ثم استـولى عليه المسيحيـون - الذين ادعوا وراثتهـم - كي يبرروا حملاتهم الصليبية، ثم استعاروها بعد ذلك... ا.هـ.

ويلاحـظ: أنه عندمـا انتشرت المسيحية صـار اليهود هم أعـداء السيـد المسيح، ودمـه في رقابهم إلى يـوم القيامة، فلما قـام المصلح الديني (كالفن) صار هو عدو السيد المسيح، وذات يوم صـار البروتستانت يعدون (البابا) هو عـدو السيد المسيح،

(١) أمريكا طليعة الانحطاط ص (١٨١).

أما أخيرًا فقد صار هتلر وموسيليني وستالين هم أعداء السيد المسيح، ومن يدري فقد ينظم قريبًا زعماء جدد كأعداء ألداء للسيد المسيح، ربما أولهم الرئيس الصيني أو الفيتنامي أو البرازيلي..

حتى جماعة (يأجوج ومأجوج) الأسطورية أطلقت على روسيا والاتحاد السوفيتي، إنه التاريخ يتلاعب به وبأهله.

بعض وقائع التاريخ تشبه (الألغام الأرضية) تبقى في الأرض سنوات ثم تنفجر في بشر أو حيوان أو سيارة أو غيرها.

والتاريخ قديمًا وحديثًا قد يكون المسؤول عن كثير من الصراعات الدموية والحضارية، فالإنسان (مصارع بطبعه) وكذلك الحيوان، لكن الإنسان يحسن ويجود ويجمل في صراعاته، فيعطيها صفة غير صفتها، والمثل القريب تلك المنشورات لنابليون والمستعمرين - دون استثناء - فكلهم جاء لخدمة البشرية وإنقاذ الحضارة والحرص على ما ينفع الأمم والشعوب.

هل سمع العالم قديمه وحديثه من مستعمر يقول: جئنا لغزوكم، واحتلال أرضكم، ونهب خيراتكم، ولعن أسلافكم، وتحطيم قدراتكم؟

إنـه الإنسان المراوغ الأعظم والمـزور الأكبر والمنافق، الذي يستطيـع أن يقول شيئًا جميلًا ويفعل عكسه، ومن يجادل في هذا فليسـأل أمريـكا مثلًا: لماذا تنشـر جنودها في كل بقـاع الأرض وتنفـق عليهم المليارات، وهي تستدين وتنادي: صدقة لله، لله يا محسنين!؟

الصـراع من طبيعة الإنسان والحيـوان، الحيوان لا يعرف كيـف يجمل صراعه، ولا كيف يخفف منه أو يشدد، لكن الإنسان يقـدر على الهبوط بالصراعات نحو الحـد الأدنى والارتفاع بها نحـو السقـف الأعلـى، وهذا في مقـدور الإنسان كمـا في مقدور الحضارة.

حـاول أنبيـاء الله جعـل الصـراع في حدود معقولـة، فلما ذهبـوا صارت أديانهم وما جاءوا به سببًا جديدًا حادًا للصراع، واليوم يجدد شياطين السياسة استثمار كل شيء حتى ما جاء به أنبياء الله.

إن السياسـي اليـوم شيطان رجيم يلعـب على كل الحبال، ويغـير دينـه وعقيدتـه كما يغـير ملابسـه الداخليـة و(جواربه وحذاءه).

إنه (حاوي) يستطيع إخراج الحية من جحرها، وردها إليه متـى شاء، وهو في صراعه وتصارعـه لا يرحم، وكل شيء عنده

مبـاح، و(الحلال ما حل باليد) أما المبـادئ والثوابت والأخلاق فمواد للحديث وليست للتطبيق.

من هنا صار التحالف فنًـا كفن الرقص، وعلاقات الدول كعلاقـة إنسان ببائعة الهوى، لا ترد يـد لامس، ولا تدفع أو تمنع (ملامس).

ولعـل من أسباب شقاء البشـر صعود هذا النوع (الرذيل) حتـى يصل إلى القمة، وصدق سيدي رسول الله ﷺ إذ جعل من علامات الساعة: (أن يكون زعيم القوم أرذلهم).

فـإذا ساد (الأراذل) وقلدهم الناس فأي خير يرتجى وأي شر يدفع؟ وهل من المستغـرب انتشار الحروب والقتل والخطف والتعذيـب والتهجـير ونشـر المخـدرات والمفخخـات؟ مع حكام أراذل ونكرات لا يعرفهم أحد؟

درس من جنوب إفريقيا

كنـت في زيـارة لجمهوريـة جنـوب أفريقيـا عندمـا كان يحكمها (البيض) بعنصريتهم الفجـة، وكان السود يقاومون، وحـدث أن فجروا طائـرة مدنية، فقامت قيامـة البيض وراحت الصحـف تبكي وتنـوح: كيف يحصل هذا؟ وجـاء جواب مُسْكت عندمـا كتب البعض: يكفـي البكاء والنواح من علَّـم هؤلاء، وأي

مدرسة تخرجوا فيها؟ ألسنا الذين علمناهم وربيناهم، فلماذا هذا الاستغراب لما فعلوا؟ هل تلد الحية إلا حية؟

وأنا بدوري أتساءل مع الملايين من البشر: من علَّم هؤلاء الأبطال الذين يشعلون الحروب التي لا تنتهي؟ وكيف شهد القرن العشرين حربين كونيتين؟ وكيف ولماذا كانت الحصيلة (١٧٦) مليونًا من البشر كما يقول المستشار بريجسنكي؟

في أي مدرسة تخرج الضباط الكبار الذين يشعلون الحروب، وينشرون الحرائق في كل أقطار الأرض؟

في أي مدرسة عظيمة تعلم (سائقو) السيارات المفخخة والأحزمة الناسفة، في بلد صغير مثل العراق المنكوب يوجد خمسة ملايين يتيم وأرملة - حسب إحصائية هيئة الأمم المتحدة - من كان السبب في قتل الرجال ويتم الأطفال؟ من المسؤول عن التهييج باسم (حرية تقرير المصير)، لتصبح كل دولة صغيرة أو كبيرة (عدة دول)، ولتشتعل فيها الحروب من دون نهاية؟

حق تقرير المصير

الإنسان صنع الدولة أو اخترعها كما صنع القنابل والمتفجرات، وكان أمله أن تعينه الدولة، فتحفظ له أمنه وتدافع

عنه، لكنه وجدها من أكبر المعتدين عليه، فصار ينادي: إذا كان خصمي حاكمي فكيف أفعل؟

الدولة تتغول على الفرد وتسلبه أمنه وترعبه وقد تعتقله ولا تفرج عنه حتى (يدفع)، ومع كل هذا الشر الجديد فإن شرًّا أشر منه يلوح في الجو حين يرفع شعار (حق تقرير المصير)، فتطالب كل جماعة صغيرة أو كبيرة وكل قومية تعتقد أنها غير حاصلة على حقها، فما هو مصير الدولة إذن؟

(جيدون جوتليب)[1] أستاذ القانون الدولي والدبلوماسي والأستاذ في جامعة (شيكاغو) - وليس في الأزهر - يتحدث عن تقرير (المصير) القومي فيذكر أن ما يقارب (٢٠٠) دولة و(٣٠٠٠) مجموعة لغوية و(٥٠٠٠) أقلية قومية (في العالم) تمثل نموذجًا رهيبًا من التنوع والانفصال، وهناك (٢٣٣) طلبًا معظمها من شعوب وجماعات قومية قدمت من أجل نيل (حق تقرير المصير) للأمم المتحدة.

د. بطرس غالي - الأمين العام السابق لهيئة الأمم - يقول: لو طالبت كل مجموعة عرقية أو دينية أو لغوية (بدولة مستقلة) فلن يكون ثمة حد لما سينجم عن تقسيمات لا حصر لها، ناهيك عن تحقيق الأمن والسلام والرفاه الاقتصادي لجميع هذه المجموعات... ا.هـ.

(١) الشعب والأمة والدولة، مجموعة من الكتاب ص (٩) دار السلام، طبعة أولى ٢٠٠٧م.

مهمة الدولة الأولى توفير الأمن ونشر العدل، فإن راحت الدولة تتخندق طائفيًّا أو عنصريًّا أو عشائريًّا أو (لصوصيًّا) وتصبح جلادًا لشعبها، تستذله وتنهب خيراته وتشرده، فسوف تفقد الولاء يومًا بعد يوم، ويتمنى الكل زوالها، فإذا جاء عدو يهاجمها لم تجد من يدافع عنها.

يقول رسولنا ﷺ: «**ألا أخبركم على خيار أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتدعون لهم ويدعون لكم، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم...**»[1] ا.هـ.

تفعيل الصراع

البشر لديهم ألف سبب وسبب للتصارع، والجديد تهييج الصراع بتحريك القضايا القومية النائمة..

يتداول العراقيون قضية: شخص أمي يذهب إلى كاتب يشرح له ما يعتقده ظلمًا يقع عليه، يستمع الكاتب ثم يكتب الطلب وقبل أن يسلمه - لصاحب الشكوى - يقرؤه عليه، فينخرط الشاكي بالبكاء، وعندما يسأله الكاتب عن سر بكائه يقول: أنا أعرف أني مظلوم، ولكني لم أعرف مقدار ذلك حتى سمعت ما كتبت.

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٥٩٩).

في البشر ناس اعتادوا الشكوى بحق ومن دونه، ومظلومون لا يشكون ولا يتوجعون، لعدم شعورهم بذلك.

الكاتب (غريغور منصور مرشو) السوري الأصل له كتاب عنوانه: مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته..

جاء فيه - وهو يتحدث عن التهييج القومي[1]: ... بلغت الدعوات القومية أوجها خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، حتى انتهى بها الأمر (للتناحر) نتيجة وعود (ملغومة) أعطتها القوى الاستعمارية لجماعات محلية. فقد وعدت كل جماعة - على حدة - بإنشاء (وطن قومي) لها - مرتهن بشروطها - وهذه الجماعات شملت: أرمني، كردي، عربي، سوري، فينيقي، قبطي، فرعوني، بربري، درزي، علوي... حتى أصبحت بلادنا بشهادة (جبران خليل جبران) آنذاك مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة، متضاربة المشارب، كل مستعمرة تشد أو ترتبط في حبل إحدى الأمم الغربية، وترفع لواءها، وتترنم بمحاسنها وأمجادها... فالشاب الذي تناول (لقمة) من علم في مدرسة أمريكية قد تحول إلى (معتمد أمريكي)، والشاب الذي تجرع (رشفة علم) في مدرسة يسوعية صار سفيرًا فرنسيًا، والشاب الذي لبس قميصًا من نسيج مدرسة روسية صار ممثلًا لروسيا... إلخ.

(١) مقدمات الاستتباع... ص (٥٥)، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

وما تخرجه هذه المدارس - كل عام - من ممثلين ومعتمدين وسفراء، هم أعظم دليل على ما تقدم، اختلاف في الرأي وتباين في النزعات، فمن درس بعض العلوم بالإنجليزية يريدون أمريكا أو إنجلترا (وصية على بلادهم)، والذين درسوا العلوم بالفرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم، وهكذا...

بالاحتكام لمرجعية (الأمم الغربية) والاستقواء بها صارت تقاس مشروعية أو عدم مشروعية الدول الإقليمية (الجديدة) بعد اتفاقية سايكس - بيكو (التقسيمية) عام ١٩١٦م.

أما المواطنون في خضم هذه التغيرات فما عليهم إلا الرضوخ وتقديم الولاء، وإلا فمصيرهم الإبعاد والتهميش أو الاعتقال، فإن حصل وانتفض أحد على هذا (المآل المشؤوم) فمصيره الحديد والنار، كما جرى وما يزال في بعض دول (المشرق والمغرب العربي)... ا.هـ.

هذا الاستتباع أو الاستلحاق شرذم الشعوب والأمم أولًا، وهيَّج قوميات وعصبيات كانت نائمة، وربما سعيدة بنومها، فإذا فتح (هذا الباب) وطالبت كل قومية (بتقرير المصير) فلن تبقى دولة بعيدة عن التقسيم.

في أفريقيا حيث القبائل كبيرة مثل (الزولو) في جنوب أفريقيا، تجد القبيلة موزعة ومنتشرة بين عدة دول، فهل سيعاد

رسم الحدود وفق الأسس القوميـة مرة، ووفق الأسس الطائفية مرة، ووفق الأسس العشائرية مرة؟

فإن حصل هذا فأي دولة تجمع قومية واحدة أو دينًا واحدًا أو لغـة واحـدة؟ أوروبا اليـوم تتجمع قارة، ومطلـوب لغيرها أن يتقسم، وقد يصل التقسيم إلى (المذهب)!

والسؤال: لمصلحة من هذا (التفتيت)؟

عندما ينتصر حاقد!

في الحـرب العالميـة الأولى تحالـف الأتراك مـع معلميهم (الألمـان) وخسر الطرفان الحرب، وتحالفنـا مع الغرب وقاتلنا الأتـراك، ودخل الجيشـ الفرنسي دمشق، ووقـف اللورد اللنبي عند قبر صلاح الدين، وقال: ها قد عدنا يا صلاح الدين!

نعم عدتم، ولكن تجاهلتم: كيف عدتم، ولماذا عدتم؟

صليبـي آخـر هو الجـنرال غوابـة يصـل إلى دمشق عام ١٩٢٠م، وهو يقود حملة ويدخل دمشق فاتحًا..

يسجل ساطـع الحصري في كتابه (يـوم ميسلون) ما ذيل به الجـنرال (غوابة) مذكراته، فقد كتب[١]: أنا الآن في دمشق،

(١) الحـروب الصليبية الأوروبية التاسعة، محمد الفرحان ص (١٤٠) طبعة ١٩٩٣م.

وهذا الاسم يمثل لي شخصيًا شيئًا خرافيًا، فقد كنت أقرأه في سجلات عائلتي وأنا صغير. إن (جان مونفولطية) هو الجد البعيد لجدتي من جهة (أبي وليز)، وقد كان وقع في الأسر خلال الحروب الصليبية الثانية عام ١١٤٧م، ونقل لدمشق. لقد كان من السواد الأعظم، لذا لم يعامله (السراقون) المعاملة الحسنة، كالتي كانوا يختصون بها (الفرسان) اللامعين، وقد جعل منه أهل دمشق (عبدًا)، يشتغل في أحد المصانع التي تصنع الورق من القطن، فاشتغل (جان) المسكين شغلًا شاقًا خلال ثلاث سنوات، وبعد ذلك (فر) من دمشق، وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي وبعد اجتياز أخطار، وعندما عاد إلى مسقط رأسه بعد غياب عشر سنوات، أسس أول (طواحين الورق) التي عرفتها أوروبا، أو ليست (العدالة العليا) هي التي سمحت لحفيد (أسير الحرب الصليبية) أن يدخل دمشق (المدينة المقدسة) ظافرًا منصورًا... ا.هـ.

إنه التاريخ هذه (السلطة) التي من مهامها صناعة الحقد والكراهية، إنه يتجاهل كيف كان الغرب يتحالف مع العرب، وفي الوقت نفسه يوقع (معاهدة سايكس بيكو) ويستعمر البلاد العربية، ويقتسمها السادة الجدد بعد أن يلحسوا وعودهم وتحالفاتهم، إنه (طاعون الاستعمار) لا يرحم ولا يعترف بالأخلاق ولا بالوعود ولا بالعهود!

من التاريخ الأسود: حرب إبادة

الإنسان الغربي المعجب بنفسه وحضارته، والمحتقر لكل الحضارات وأهلها، فعل بالبشر من الهنود الحمر والأفارقة ما يسود تاريخه إلى الأبد، والشاهد العدل الذي لا يخاف ولا يهاب هو (د. نعوم تشومسكي) الذي يوصف عادة بأكبر (مشاغب)، إنه متطوع لكشف جرائم إسرائيل وأمريكا.

تحدث في (تواريخ الانشقاق) [1]. عما فعله المهاجرون لأمريكا من حرب (إبادة) لا مثيل لها ضد الهنود الحمر.

يقول د. نعوم: نحن نحتفل كل عام في ولاية (ماسوتشتس) الأمريكية بغزو (همسفير الغربية)، ولدينا عطلة رسمية تدعى (يوم كولومبس) لكن قلة قليلة تدرك بأنها تحتفل بأول (إبادة وحشية) لشعب في العصر الحديث، وهذا ما كان عليه كولومبس، وكأنهم يحتفلون (بيوم هتلر) في ألمانيا.. فعندما جاء المستعمرون من أسبانيا وإنجلترا وهولندا وغيرها إلى (همسفير) فقد وجدوا مجتمعات مزدهرة، والاكتشافات للآثار تشير إلى أن عدد السكان الأصليين في غرب همسفير يمكن أن يصل أو يقارب (١٠٠) مليون نسمة، ويوجد حوالي (٨٠) مليون نسمة شمال (ريوجراند) و(١٢) مليون نسمة أو ما يقارب

(١) تواريخ الانشقاق ترجمة محمد نجار، ص (٢٥) طبعة ١٩٩٧م.

ذلـك حـول (نهـر المسيسبـي)، وخلال ما يقـرب من الشهـر فإن أولئـك السكان - من الهنود الحمر - قد أبيدوا، ففي منطقة شمال (ريوجرانـد) كان يتواجـد مـن (١٠-١٢) مليون، لكـن مع إطلالة عـام ١٩٠٠م لم يبـق سوى (٢٠٠) ألف نسمة فقـط، أما في منطقة (الانديـز ومكسيكو) فقد كان هناك تجمعـات هندية كثيفة، إلا أن معظمها اختفى، معظمهم قتل، أو أبيد تمامًا، وغيرهم هلكوا نتيجة الأمراض الأوروبية، التي جاء بها المستعمـرون، إنها إبادة جماعية قبل نشـوء دولة القرن العشرين، وهذه ربمـا كانت واحدة من أكبر حروب الإبادة، إن لم تكن أعظمها في التاريخ البشري، لكنها لم تكن غريبة من نوعها، إنها حقائق لا يعترف بها... لقد مررت بـ (شاهدة قـبر) كتب فيها (هنا ترقد امرأة هنديـة) ضحت عائلتها وقبيلتها بأنفسهم وأرضهم ثمنًا لتولد وتنشأ هذه (الأمة العظيمة)..

إنـه مثـال مخيف جدًّا، ذلك أن المـرء لا يعرف كيف يبحثه أو يناقشـه، فهذه المرأة وعائلتهـا لم يضحوا بأنفسهم وأرضهم، بـل قتلوا من قبل أبنائنا، وقـد أجلوا عن أرضهم، كما لو أن هذا يحدث بعد (٢٠٠) عام من الآن... ا.هـ.

عبادة القوة

يقول شاعر:

تعشقتها شمطاء شاب وليدها وللناس فيما يعشقون مذاهب

ولـكل عشق متطلباته وتكاليفه، وعبادة القوة تتطلب تكلفة عاليـة، وحين تصبح من عبادة حاكـم مستبد جاهل، فقد تكلفه حياته وملكه وتدمر بلده تدميرًا كاملًا.

د. نعوم تشومسكي ذلـك المعارض المشاكس الذي لا يخاف ولا يهـاب، يسألـه محاور عـن تأثير حـرب ١٩٦٧م على الشعب الأمريكي، فيقـول(١): لقد حققت إسرائيـل انتصارًا عسكريًّا مثـيرًا، وأظهرت قوتهـا العسكرية إذ تغلبت علـى العالم العربي برمتـه، فأكسبها سمعـة عظيمة، فمعظـم الأمريكيين، وخاصة الفئات المتنفذة يحبون (العنف)، ويرغبون أن يكونوا إلى جانب الـذي يحمل السلاح، فـكل العالم يقف إلى جانـب (الضعيف) إلا الأمريكـي، وهنـاك توجد دولـة العنف والقـوة التي سحقت أعداءها، وأظهرت بأنهـا (القوة العسكرية المهيمنة) في الشرق الأوسـط، واضعة دوله - التي تنتمي للعـالم الثالث - في مكانها وحجمهـا، وكان مثـيرًا بشـكل خاص، لأن عـام ١٩٦٧م كان الزمـن الذي حققـت فيه أمريـكا (نجاحًا ضئيـلًا) في غزوها للهنـد الصينية، وقد كانت النخب تساند بشكل كبير الحرب في فيتنـام... وقد بـرزت إسرائيل وظهرت كيف يتـم ذلك، وهكذا أظهـرت نفسها كنوع من (حصان طروادة) في الشرق الأوسط، وكقـوة عسكريـة متقدمة، وكمجتمع قوي، وهـذا هو المثال الذي تريده أمريكا... ا.هـ.

(١) تواريخ الانشقاق ص (١٠٢).

وإذا كان بعض الحكام الفاشلين المستبدين قد منحوا إسرائيل كل هذا النجاح والذي أسموه (نكسة)، ومازلنا نعاني من هذه (النكسة) حتى اليوم، فلقد أحسن الشاعر حين صنف البشر فقال:

خلق الله للحروب رجالًا ورجالًا لقصعة وثريد

وأقول: وجد لدينا حكام فاشلون هربوا من العسكرية للسياسة، فأثبتوا الفشل في الميدانين معًا، ذهبوا وبقينا نعاني من (بركات هزائمهم).

كانوا يحسنون (الردح) في الإذاعات، ويجيدون السب والشتم، وهذا كل ما يملكون، وقد وصفهم الشاعر عمر أبو ريشة أصدق وصف:

إن خوطبوا كذبوا أو طولبوا غضبوا أو حوربوا هربوا أو صولحوا غدروا

خافوا على العار أن يمحى فكان لهم على الرباط لدعم العار مؤتمر

على الأرائك يا سبحان خالقهم عاشوا وما شعروا ماتوا وما قبروا

يقترح البعض أن يكتب هذا الشعر كشواهد على قبور من هلك، فهو أصدق وأفضل وصف، فاللهم لا شماتة، ولا كثَّر الله من أمثالهم، فلقد أشبعونا هزائم حتى ضربتنا التخمة، وفرح لهزيمتنا كل شامت..

من التاريخ الأسود

تقدم أن التاريخ هو من يصوغ أحلام الشعوب ويغذيها بذكريات مزيفة، وهو أخطر (كيمياء) يفرزها الفكر البشري، فيسكر الشعوب ويغذيها بذكريات مختلفة سليمة أو سقيمة.

لقد وجدت البابا (أربانوس الثاني) يهيج الناس ضد الإسلام وأهله في خطاب لا تصدق به (جملة)، ففي عام ١٠٩٥م وقبل بداية الحملات الصليبية، بدأ (التسخين) لإشعال سلسلة حروب تحرق الأخضر واليابس، تقتل المسلمين وتخرب بلادهم، ولا يسلم من شرورها حتى النصارى في (المشرق) قائلًا[١]: أيها العرق الإفرنجي، العرق الذي أحبه الله واختاره، لقد جاءنا من ربوع أورشليم القدس ومن القسطنطينية نبأ (أليم): أن عرقًا (لعنه الله وأخرجه من ملكوته) قد دنس ديار المسيحيين (بالغزو)، فأفزغ سكانها بالنهب والنار، ولقد اقتادوا السبايا إلى ديارهم، ثم قتلوهم بعد تعذيب وتنكيل، لقد حطموا محاريب الكنائس ولوثوها بنجاساتهم... ا.هـ.

ما تقدم نص خطاب البابا (حرفيًّا) والبابا -في نظر الكاثوليك- معصوم من الخطأ والكذب، فهل كان الخطاب صادقًا؟

لنعد إلى المعاهدة التي وقعها الخليفة الراشد عمر.

(١) في البدء كان الصراع، د. خلدون النقيب ص (٣٧٩) طبعة أولى.

معاهدة بيت المقدس

حين حاصرت الجيوش الإسلامية بيت المقدس من كل الجهات، طلب رجال الدين النصارى أن تسلّم بشرط أن يحضر الخليفة عمر بنفسه، فتوجه من المدينة ومعه رجل واحد، وعلى بعير يتناوبونه.

وقد جاء في المعاهدة[1]: بسم الله الرحمن الرحيم: «هذا ما عاهد عليه عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل (إيلياء) من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، بريئها وسقيمها، وسائر ملتها، إنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من (اليهود)، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها (الروم) واللصوص، ومن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء، من الجزية، ومن أحب أن يسير بنفسه وماله مع (الروم) ويخلي بيعهم وصلبانهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا (مأمنهم)، ومن كان بها من أهل

(١) الديمقراطية د. محمود بسيوني ص (٦) طبعة ٢٠٠٥ (نقلًا عن تاريخ الطبري).

الأرض فمن شاء منهم أقام وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء والمؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

وبعد توقيع عمر رضي الله عنه شهد عليها الأمراء مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية.

ووصى الخليفة عمر رجاله أن يمنعوا المسلمين من إيذاء وظلم أهل الذمة وأن يتسامحوا معهم، وأن يوفوا لهم بعهدهم، ولا يكلفوهم فوق طاقتهم... ا.هـ.

فهل طرح الأسبان مثل هذه المعاهدة في أسبانيا، وهل نطمع أن نحصل على مثل هذه المعاهدة في العراق أو أفغانستان أو الشيشان أو كشمير أو فلسطين، ولو بعد ألف عام من تصريحات البابا؟

وصدق الله إذ يقول: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ (آل عمران: ١٨٦).

لقد سمعنا وما زلنا نسمع الكثير من الأذى، ومع ذلك فمن أبنائنا عشاق، برغم كل الأذى، وصدق الإمام الشافعي حين قال: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، وأزيد: حمار وله (قرون).